

المكي والمدني *

ينقسم البحث حول المكي والمدني من القرآن الى عدة بحوث نشير الى بحثين منها :

الاتجاهات في معنى المكي والمدني :
يقسم القرآن في عرف علماء التفسير الى مكي ومدني، فبعض آياته مكية وبعض آياته مدنية. وتوجد في التفسير اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح :
احدها : الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزمني للآيات، واعتبار الهجرة حداً زمنياً فاصلاً بين مرحلتين، فكل آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكية، وكل آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنية وإن كان مكان نزولها (مكة)، كالآيات التي نزلت على النبي حين كان في مكة وقت الفتح، فالمقياس هو الناحية الزمنية لا المكانية.

والاتجاه الآخر هو الاخذ بالناحية المكانية مقياساً للتمييز بين المكي والمدني، فكل آية يلاحظ مكان نزولها، فان كان النبي ﷺ حين نزولها في مكة سميت مكية، وإن كان حينذاك في المدينة سميت مدنية.

والاتجاه الثالث يقوم على اساس مراعاة اشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

ويمتاز الاتجاه الاول عن الاتجاهين الآخرين بشمول المكي والمدني على أساس الاتجاه الأول لجميع آيات القرآن، لأننا اذا أخذنا بالناحية الزمنية كانت كل آية في القرآن إما مكية وإما مدنية، لأنها اذا كانت نازلة قبل هجرة النبي إلى المدينة ودخوله فيها فهي مكية، وان نزلت على النبي في طريقه من مكة إلى المدينة، أو كانت نازلة بعد دخول النبي مهاجراً إلى المدينة فهي مدنية، مهما كان مكان نزولها.

وأما على الاتجاهين الآخرين في تفسير المصطلح فقد نجد آية ليست مكية ولا مدنية، كما اذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً لا مكة ولا المدينة ولم يكن خطابها لأهل مكة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في معرجه أو أسرائه.



ترجيح أحد الاتجاهات الثلاثة :

واذا أردنا أن نقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحداً منها فيجب ان نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث، لانه يقوم على (اساس خاطئ) وهو الاعتقاد أن من الآيات ما يكون خطاباً لأهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطاباً لأهل المدينة؛ وليس هذا بصحيح، فان الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطاباً لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاماً كما عرفنا.

والواقع أن لفظ المكي والمدني ليس لفظاً شرعياً حدد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وانما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير؛ وما من ريب في أن كل احد له الحق في أن يصطلح كما يشاء، لا نريد هنا أن نخطئ الاتجاه الاول أو الاتجاه الثاني ما دام لا يعبر كل منهما الا عن اصطلاح، من حق اصحاب

ذلك الاتجاه ان يضعوه، ولكننا نرى أن وضع مصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني - كما يقرره الاتجاه الاول - أنفع وأفيد للدراسات القرآنية، لان التمييز من ناحية زمنية بين ما أنزل من القرآن قبل الهجرة وما أنزل بعدها أكثر أهمية للبحوث القرآنية من التمييز على أساس المكان بين ما أنزل على النبي في مكة وما أنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزمن أساساً للتمييز بين المكي والمدني واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية أوفق بالهدف.

وتتجلى أهمية التمييز الزمني من التمييز المكاني في نقطتين :

احدهما : (فقهية) أي أنها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الاحكام الشرعية، وهي أن تقسيم الآيات على أساس الزمن الى مكية ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها يساعدنا على معرفة النسخ والمنسوخ، لأن النسخ متأخر بطبيعته على المنسوخ زماناً، فاذا وجدنا حكيمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا ان نعرف النسخ عن طريق التوقيت الزمني، فيكون المدني منها ناسخاً للمكي لأجل تأخره عنه زماناً^(١).

والأخرى هي : أن التقسيم الزمني للآيات الى مكية ومدنية يجعلنا نتعرف على مراحل الدعوة التي مر بها الاسلام على يد النبي، فإن الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وانما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة،

(١) هذه النقطة انما تكون مهمة بناء على المذهب المعروف في علوم القرآن الذي يقول بوجود النسخ بين الآيات القرآنية، من خلال افتراض وجود حكيمين متخالفين احدهما متأخر عن الآخر زماناً فيفترض أن الثاني ناسخ للاول؛ وأما اذا التزمنا بعدم وجود النسخ بهذا الشكل وانما موارد النسخ في القرآن مبينة من خلال نظر الآية النسخة للآية المنسوخة في مضمونها ...، فلا تبقى قيمة لهذه النقطة وانما تكون مجرد فرضية، وللمزيد من التوضيح يراجع بحث (النسخ) - المؤلف.

وهما مرحلة العمل في ضمن المجتمع الذي تحكمه السلطة الكافرة المهيمنة على جميع الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، ومرحلة العمل ضمن دولة الاسلام، ولئن كان بالامكان تقسيم كل من هاتين المرحلتين بدورها أيضاً الى مقاطع زمنية، فمن الواضح على أي حال أن التقسيم الرئيس هو على اساس الهجرة. فاذا ميزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما نزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة والخصائص العامة التي تجلت فيها خلال كل من المرحلتين.

وأما مجرد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار وإهمال عامل الزمن فهو لا يمدنا صلة عن هاتين المرحلتين، ويجعلنا نخلط بينهما، كما يحرمنا من تمييز النسوخ من الناحية الفقهية.

يتضح أيضاً مزيداً من الأهمية عند دراستنا لخصائص المكي والمدني؛ فلهذا كله تؤثر الاتجاه الأول في تفسير المكي والمدني، وعلى هذا الاساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

طريقة معرفة المكي والمدني :

بدأ المفسرون عند محاولة التمييز بين المكي والمدني بالاعتماد على الروايات والنصوص التاريخية، التي تؤرخ السورة أو الآية وتشير الى نزولها قبل الهجرة او بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبعها المفسرون واستوعبوها استطاعوا أن يعرفوا عدداً كبيراً من السور والآيات المكية والمدنية ويميزوا بينها.

وبعد أن توفرت لهم المعرفة بذلك اتجه كثير من المفسرين الذين عنوا بمعرفة المكي والمدني الى دراسة مقارنة لتلك الآيات والسور المكية والمدنية التي اكتشفوا

تأريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكية وخصائص عامة أخرى في المدني من الآيات والسور فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامة للآيات والسور المكية حكموا بأنه مكي، وما كان أقرب إلى الخصائص العامة للمدني وأكثر انسجاماً معها أدرجوه ضمن المدني من الآيات بالسور.

وهذه الخصائص العامة التي حددت المكي والمدني بعضها يرتبط بأسلوب الآية والسورة، كقولهم: إنَّ قصر الآيات والسور وتجانسها الصوتي من خصائص القسم المكي، وبعضها يرتبط بموضوع ومضمون النص القرآني، كقولهم مثلاً: إنَّ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص السور المكية، ومحاوره أهل الكتاب من خصائص السور المدنية.

ويمكن تلخيص ما ذكره من الخصائص الاسلوبية والموضوعية للقسم المكي فيما يأتي:

- ١ - قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.
 - ٢ - الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
 - ٣ - الدعوة للتمسك بالاخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
 - ٤ - مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
 - ٥ - استعمال السورة لكلمة « يا أيها الناس » وعدم استعمالها لكلمة « يا أيها الذين آمنوا ».
- وقد لوحظ أنَّ سورة الحج تستثنى من ذلك لأنها استعملت الكلمة الثانية،

بالرغم من أنها مكية، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكية^(١).

وأما ما يشيع في القسم المدني من خصائص عامة فهي :

١ - طول السورة والآية واطنابها.

٢ - تفضيل البراهين والادلة على الحقائق الدينية.

٣ - مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم.

٤ - التحدث عن المنافقين ومشاكلهم.

٥ - التفصيل لاحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية

والاجتماعية والدولية.

موقفنا من خصائص السور المكية والمدنية :

وما من ريب في أن هذه المقاييس المستمدة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءاً على الموضوع، وقد تؤدي الى ترجيح لاحد الاحتمالين على الآخر في السور التي لم يرد نص بانها مكية أو مدنية، فاذا كانت احدى هذه السور تتفق مثلاً مع السور المكية في اسلوبها وايجازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشركون وتسفيه احلامهم، فالارجح أن تكون سورة مكية لاشتغالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكية.

ولكن الاعتماد على تلك المقاييس انما يجوز اذا ادت الى العلم، ولا يجوز الأخذ بها لمجرد الظن؛ ففي المثال المتقدم حين نجد سورة تتفق مع السور المكية في اسلوبها وايجازها لانستطيع أن نقول بانها مكية لأجل ذلك، إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنية وهي تحمل بعض خصائص الاسلوب الشائع في القسم المكي، كما في سورة

(١) سورة الحج مدنية وليست مكية، وتستعمل فيها الكلمة الأولى والثانية، ولكن الأولى

اكثر كما ان سورة الحجرات مدنية بلا اشكال وتستعمل فيها كلمة ﴿يا ايها الناس انا خلقناكم

من ذكر وانثى...﴾ الحجرات : ١٣ - المؤلف.

النصر وغيرها، صحيح أنه يغلب على الظن حينذاك أن السورة مكية لقصرها وإيجازها، ولكن الأخذ بالظن لا يجوز لأنه قول من دون علم : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم... ﴾ ^(١).

وإذا ما أدت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكد من تأريخ السورة وأنها مكية أو مدنية فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذلك.

ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلاً، فإن هذه الخصيصة الموضوعية تدل على أن النص مدني، لأن طبيعة الدعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تتسجم إطلاقاً مع التشريعات الدولية، فنعرف من أجل هذا أن النص مدني نزل في المرحلة الثانية من الدعوة، أي في عصر الدولة.

